تاريخ استقبال المقال: 2016/04/15 تاريخ قبول نشر المقال: 2016/07/21 تاريخ نشر المقال:2016/09/20

الأبعاد السوسيولوجية لتبلوُر ظاهرة الغزل العذري في العصر الأموي.

د. مسعود وقّاد

جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي – الجزائر

البريد الإلكتروني: ouggad1971@gmail.com

ملخص:

يعدّ الغزل العذريّ ظاهرة اجتماعية فريدة استضافتْها بيئةٌ تاريخية وجغرافية خاصّة في عصر بني أمية، ولقد تضافرت جملة من العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والبيئية التي ميّزت هذا العصر، وأدّت إلى ترعرعها وتبلورها بوصفها حركة فنية حاملة لمضمون شعري مأساوي أنتجه القمع السياسي، والكبت الاجتماعي وغيرها من الأسباب، وهذا المقال هو محاولة لإماطة اللثام عن الدور الفاعل لتلك العوامل في تشكّل هذه الحركة الأدبية المميّزة.

The Factors under the Development of Platonic Love Poetry Phenomenon during the Umayyad Period

Abstract:

The platonic love poetry is considered as a unique social phenomenon hosted by a special historical and geographical environment during the Umayyad Period. Many of political, religious, social and environmental factors which characterised this era, inter alia, came together and led to growing and crystallizing it as an art movement loaded with tragic poetry content, as a result of political oppression, social repression and other reasons. This article tries to mark the unveiling of the effective role of those factors in forming this special literary movement.

مقدمة:

ما كاد ينقضي عهد الخلافة الراشدة الذي كان الفرد فيه ذا فعالية في صناعة التاريخ، وكانت أهدافه متوافقة مع أهداف الدولة، فقبل التنازل عن رغباته وغرائزه خدمة لها – حتى اغتصب التيّار الملكيّ مقاليد الحكم، فدَحَض " الجوهر المحمدي" وسقطت بذلك الجمهورية، وانحرفت الدولة الإسلامية عن واحدة من أهمّ غاياتها؛ تحقيق المساواة بين الأفراد، وانفصل الفرد عن جسد الدولة التي أصبحت آلة في يد هذه الطبقة الأرسطوقراطية الجديدة بقيادة معاوية بن أبي سفيان [1].

وبذلك اتّجه المجتمع وجهاتٍ مختلفةً تحت تأثير هذه الظروف السياسية الجديدة، فبرزت عدة طبقات اجتماعية مختلفة ومتناقضة؛ منها من سخطت على ما جدّ في الحياة، ومنها من رضيت، ومنها من اختارت الانزواء على نفسها لا تميل إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، وتمركزت في بوادي الحجاز ونجْدٍ، ومن هذه البوادي إنّما كان انبعاث الحركة العذرية بعنف، مدفوعا بعدّة عوامل سياسية، واجتماعية، ودينية، وبيئية.

العوامل السياسية :

لم يكد بنو أمية يتولّون تسيير الدولة الإسلامية، حتى أخذت رياح الفتنة تعصف بوحدة الأمّة واستقرارها، إذ كانت هذه الأمّة ترى أن الأمويين غاصبين للحكم، وورثة غير شرعيين، وبذلك تكوّن تحت تأثير سخطها على هؤلاء الحكّام عدد من الأحزاب السياسية التي كانت تدعو إلى إعادة الجوهر المحمّدي الجمهوري الذي مُني بالهزيمة على يد هذه الطبقة الأرسطوقراطية، التي أسقطت أهم بنْد كانت تعتمده الدولة الإسلامية في التسويّة بين الناس . وهو بنْد الشورى الذي كان يرمي . فيما رمى إليه . إلى تحقيق العدالة بين المسلمين؛ فإذا ما استثنينا منطقة الشام الذي وجد بنو أمية فيه مناصرين لهم رأوا فيهم ورثة شرعيين للحكم بعد علي– كرّم الله وجهه – فحقّقوا فيه ما لم يكونوا يحلمون بتطبيقه في القديم؛ إذْ تمكنوا من فرض سيطرتهم على العراق والعالم الإسلامي كلّه بعد ذلك، إذا ما استثنينا هذه المنطقة، فإنّ بقية المناطق الأخرى، الحجاز، العراق، كان السخط فيها على أشُدّه، فتكوّنت –نتيجة لهذا السخط– ثلاثةُ أحزاب سياسية معارضة.

أوّلها حزب الزبيريّين، وهم أتباع عبد الله بن الزبير، وقد كانوا ينادون بضرورة عودة الخلافة إلى الحجاز، وأن يتولاّها أحد أبناء الصحابة الأوّلين، وليس يزيد بن معاوية، وقد كان هذا الحزب أقصر الأحزاب عمرا، إذ لم يتجاوز الثماني سنوات، وهي مدّة غير كافية لتكوين نظرية سياسية واضحة المعالم، ويذكر له أنّ قائده عبدَ الله بنَ الزبير ادّعى لنفسه الخلافة بعد موت معاوية، حتّى إذا توفي يزيد أجابته الحجاز كلّها ومصر والعراق، وبعض بلدان الشام لكنّ ظهر مروان بن الحكم في الشام، فأوقع به في موقعة مرج راهط(*) الشهيرة " بصفّين الثانية" [2]، وبعد أن تولى الخلافةَ ابنُهُ عبدُ الله أرسل الحجّاج إلى ابن الزبير، فقتله، وبموته انتهى أمر هذا الحزب.

أما ثانيها فهو حزب الخوارج، وهم الذين خرجوا عن طاعة إمامهم علي بن أبي طالب . كرّم الله وجهه . الذي بايعوه، وبعدما رضي بتحكيم عمرو بن العاص لمعاوية، ووقفوا في وجهه وكفّروه، كما وقفوا

في وجه عثمان وكفّروه، متحجّجين في ذلك بقوله تعالى: " **فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ**" [3] ، فاعتزلوا عليّا إلى " حُوراء" بالكوفة [4]، مقتدين بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكّة، وقد كانوا يرفضون قصْر الخلافة على القريشيين، فهي ليست حقّا إلا لله، لذلك كان يجب أن يتولاّها أقرب النّاس إليه تقوى وزهدا وورعا، ولو كان عبدا حبشيّا، فحملوا راية الجهاد على كلّ من لا يشايعهم، واستمّروا في هذا الجهاد طوال عصر بني أمية حتى ظُفر بهم في عهد مروان بن محمّد، فانتهى أمرهم.

وأمّا ثالث تلك الأحزاب فهو حزب الشيعة الذي يعدّ أخطر حزب في تاريخ الأمّة الإسلامية، ويمكن للمتتبع للتاريخ الإسلامي أن يقف على الجذور الأولى لهذا الحزب منذ عهد أبي بكر الصدّيق وعثمان بن عفّان ، فإن الذي وقع وانتهى بعد ذلك بمقتل عثمان ، يثبتُ، بقطع، أنّ بني هاشم لم يكونوا راضين عن خروج الخلافة عنهم [5]، إذ لمّا بدأ التفكير في اختيار الخليفة، اتجهت الأنظار إلى عليّ بن أبي طالب، وتشكّلت فئة تبنّت هذه الفكرة، وهي التي سميّت بعد ذلك بالشيعة، لأنها شايعت عليا، وثورة يزيد بن الملهب، وكانوا يثورون مع أوّل ثائر، وينتهزون أوّل فرصة للخروج عليهم، لكنّ هذه الثورات لم تأخذ الطابع المنظّم للثورة إلاّ في عهد مصعب بن الزبير على يد المختار الثقفي، وأبي مسلم الخراساني [6].

ونحن لم نسترسل هذا الاسترسال كلّه في سرد أخبار هؤلاء الشيعة وأولئك الخوارج، والزبيريين، إلاّ لنقف على الدور الخطير الذي كان لهذه الخلافات المتناقضة، وما انعكست به أفكارهم على هذه الطائفة من الشعراء الغزليين العذريين، تأثّرِهم بها وتأثيرِها في شعرهم.

فليس صدفة أن يتزامن بروز هذه الطبقة من العذريين الكبار مع هزيمة الحركة الزبيرية، وحركة الخوارج، ومأساة زيد بن علي، ومع زمن الفتوحات الكبرى، وليس من الصدفة . أيضا . أن تتطور الحركة العذرية هذا التطور، وأن تستوي على سوقها إثر مأساة الحسين!، وأن تزدهر في القرن الثاني الهجري بالذات.

لذلك فإنّ أيّ دراسة لهذه الظاهرة لا تربطها بحركة الفتوحات من جهة، وبالصراعات الداخلية العميقة التي خاضها الجمهوريون ضدّ الملكيين . هي دراسة ناقصة وسطحية لا يمكنها . بأيّ حال من الأحوال . أن تظهر الأساليب الحقيقية لتطوّر الحركة العذرية، وأي تعليل" لا يربطها بالحركة الإمبراطورية وبخطَّي القتال خطِّ التوسّع الحدودي، وخطِّ التناحر السياسي في الداخل، سيظلّ عاجزا عن الإحاطة بعوامل نشوئها، بل حتّى بمحتواها العميق "[7].

وبالتالي فإنّ فشل الخطّ الجمهوري الذي كان يطالب بإعادة الدولة إلى ما كانت عليه في العصر الإسلامي النقيّ، والذي يمثّله عدد من الأحزاب الثائرة؛ حزب الشيعة، حزب الخوارج، وحزب الزبيرين . أدّى إلى فصل الفرد عن جسم الدولة، فقامت بين الأفراد وجهاز الدولة الذي تديره يد التيار الملكي الاستبدادي، قطيعةٌ دخلت مرحلة من المعارضة السريَّة والاحتجاج المنطوي، وأصبح العقل العربي في تعارض مع شرطه التاريخي الأساسي الذي يتمثّل في التنازل عن الحقوق الأزليّة للروح، وابتغاء خدمة التاريخ، أما وقد تحوّلت الدولة إلى ملكية استبدادية، وألغي مبدأ الشورى، وانحصرت الفائدة التاريخية في خدمة طبقة واحدة، فإنّ الفرد لم يعد في صالحه أن يتنازل عن هذه الحقوق التي لا يفيده التنازل عنها بقدر ما يكون مجالا

ممتازا لاستغلال الآخرين له، " .... وهكذا غدا المثال الأخلاقي في العصر الأموي أداة في خدمة الاستبداد الملكي الخالع للأفراد والساحق لهم تحت وطأة آلة الدولة " [8]، ولذلك غدا الأفراد يمتثلون لهذا المثال، وفي الوقت نفسه، يطالبون بحقوقهم الطبيعية التي وُسمت . بطريقة مضمرة . بالحرّية العشقية، وهم بذلك ساخطون على النظام السياسي لعصرهم، فعبّروا بطريقتهم، عندما أضمروا احتجاجهم على سياسة عصرهم خلف تغزّلهم، وأدانوها إدانةً واضحةً من خلال الوجَع العشقيّ الذي وَسَم معظم شعرهم.

ولقد عاصر أكبر الشعراء العذريين مرحلة الفتوحات الكبرى، ولَرُبّما كانت الجدلية قائمة بين تعاظم الزحف العسكري شرقا وغربا، وإيغال الثقافة في ضرب حصار على العشق، لأنها ترى أن هذا العشق سيعطّل الأفراد عن المشروع الخارجيّ الجبّار، "ولعلّ أجل مظاهر تحصين الأفراد ضدّ العشق هو إطلاق كلمة " حُرمة" على المرأة في الثقافة العربية" [9].

وما كادت نار هذه الفتوحات تخمدُ، ورياحها تهدأ، وما كاد عملها يتحوّل إلى عمل حكومي منظَّم تشرف عليه الدولة وتنظّمه بعدما كان عملا جماعيا . حتّى تفرّغ هؤلاء الشعراء إلى أنفسهم، وسقطت عليهم تلك المسؤولية الجماعية، " ورجعوا ينظرون إلى حياتهم العاطفية، ويصغون إلى أنينها ومرحها " [10]. فأخذ شعراء المدن يمرحون، ويقصِفون في حياتهم المرحة الماجنة، من أمثال عمر بن أبي ربيعة، وأضرابه ممّن توافرتْ لديهم أسباب القصف والمرح، بما أفاء عليهم الإسلام من مغانم الفتوحات، واتّجه شعراءُ آخرون من البادية اتّجاها مغايرا في غزلهم العفيف مدفوعين إليه بانصرافهم عن السياسة ليأسهم منها، فراحوا يدينونها من خلال شعرهم المتألّم الذي يزخر بالتوجّع والشكوى.

كما يمكن أن نضيف إلى هذه العوامل التي تدرج ضمن تأثير السياسة والفتوحات عاملا آخرَ يراه بعض الباحثين جوهريا في تطوّر الظاهرة العذرية، وهو عامل الهجرة خارج الجزيرة العربية، التي تمّت بأعداد هائلة مدفوعة بتحرّكات الجيوش والفتوحات، وكثرة من قُتل، ومن استوطن خارج الجزيرة ..." ممّا ترك شكلا من شعر الحنين يرافقه هذا الشكل من الغزل، أو شكل مقارب له، وليس فيه غلوُّه، وإنّما له رقّته، وبعده عن مظاهر الشهوانيّة"[11].

ولهذا كان الغزل العذري استجابة وامتثالا لمجريات العصر وقيمه بقدر ما كان احتجاجا عليها ورفضا لها؛ فابتعاده عن الإغراق في وصف الجسد الأنثوي، والإعراض عن المجون الذي عرفه بعض الشعراء الجاهليين ومحاولة السموّ بالمرأة إلى عالم المثال الروحي، وهذه القدسية المضفاة على العشق، كلّ ذلك إنما هو انصياع لمثُل العصر وروحه، "فالشاعر العذريّ يعيش في بؤرة التوتّر الكثيفة، أو في الانشطار إلى ذاتين؛ إحداهما أصيلة ومن صنع " الطبيعة" وهي نزّاعة إلى العشق، وأخراهما اصطناعية مقحَمة على الأصالة، وهي من صنع المجتمع." [12]

وخلاصة القول أن خطر العامل السياسي يكمن في أنّه استغلّ كلّ طاقات الأفراد، واستثمر حقوقهم الطبيعية التي تتمثّل في العشق، أو حرية العشق في خدمة المشروع التاريخي العظيم، وفي بناء الإمبراطورية التي تستلزم من الأفراد أن يصبّوا أغلب طاقاتهم وجهودهم في ذلك، أمّا الأفراد فكانوا . وهذا أمر طبيعي . يريدون تحقيق ذواتهم بتلبية رغباتهم، لأنّهم صاروا في شقاق مع هذه العملية، عملية البناء ،

لأنّها لا تحقّق مصلحتهم الذاتية، وإنّما تخدم طبقة أخرى من طبقات المجتمع، وهي الطبقة الأرسطوقراطية الحاكمة.

وإذن فالروح الفرديّ يريد المرأة التي هي مبتغاه الأصلي، أمّا الروح التاريخي، فيريد الإمبراطورية لأنّها شرط من شروط البقاء والاستمرار، وبذلك وُضع الفرد – إبّان هذا العصر– أمام هذه المفارقة الأساسية التي جعلته ينطوي على ذاته، فراح يدين تاريخه ومجتمعه، وبذلك جاء شعر هذا العصر مليئا بالتوجّع الذي يضمر وراءه احتجاجا صارخا على الملَكية الاستبدادية.

وأمّا الفتوحات فقد كان لها ـ كما رأينا ـ أثرُها البالغُ في السير بهؤلاء الشعراء إلى ما صاروا إليه في تعفّفهم وسموّهم الروحي، إذ لمّا أخذت الدولة على عاتقها تنظيم الجيوش؛ فأعفت الناس من العمل الجماعي، راح الناس يتأملون أحوالهم النفسية والعاطفية، ويصغون إلى أنين حياتهم ومرحها.

العوامل الدينية:

وكما أثّرت السياسة والفتوحات الإسلامية على نفسية هؤلاء الشعراء العذريين، كان للإسلام أيضا ـ هذا الدين الجديد بما جاء به من قيم ومبادئ ـ ، أثره، إذ في العصر الأموي كانت قد اكتملت نشأة هذا الجيل من الشعراء الذي مازجت التربية الإسلامية أعماقه وخالطت دماءه وظلّلت طريقه.

فأهمّ ما يلاحظه المتتبّع لحياة الناس في هذا العصر من تغيُّر هو تلك الموجة من الزهد التي انتشرت في صدور كثير من الصحابة الذين رافقوا زاهدَ الأمَّة الأوّلَ محمدًا صلى الله عليه وسلم، واغتذَوا ذلك الإعراض عن ملاهي الحياة ولذائذها، فاندفعوا في حياة ناسكة كلّها تقوى وعبادة وابتهال إلى الله، وانتظار لما عنده، وقد وصف هذه الطائفة الحسن البصْري بقوله :" أدركت من صدور هذه الأمة قوما، إذ جنّهم الليلُ، فقيامٌ على أطرافهم يفترشون وجوهم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم " [13].

وقد استمرّت هذه المجاهدات والرياضيات النفسية في حياة التابعين حتّى أنّ الواحد منهم ليصلّي ألف ركعة في اليوم، وتحطّ الطير على ظهره تحسبه حائطا من كثرة إطالته السجود، وقد يحجّ الواحد منهم راجلا، بدلا من ظهور الجمال [14]. ابتغاء زيادة المشقّة، وتعذيب النفس طلبا لما عند الله، من الثواب، وخوفا ممّا أعدّه من العقاب، وإن هذه الموجة لتلاحظ بوضوح في إقليم العراق، أكثر من الأقاليم الأخرى، ذلك أن هذا الإقليم تعاقبت عليه الحروب الداخلية الطويلة في هذا العصر، فتحوّل الذين خسروا هذه الحروب إلى حياة الزهد، ووضعوا أمانيَّهم في الآخرة، وما وعد الله به عباده المتّقين، وقد كان لظلم حكّام بني أميّة يدٌ طولى في ذلك، فلم يكن أمام هؤلاء المظلومين إلا الاعتصام بحبل الله، والانصراف عن متاع الدنيا إلى متاع الآخرة.

وفي هذا الجوّ من الزهد والنسك والإعراض عن متاع الدنيا، نبَتَ شعراء بني أميّة في محيط جديد فيه ما فيه من الروحيّة والمثالية والإيمان بالعالم الآخر الذي يعلو حسّهم وشعورهم، فانطبعت نفوسهم بطوابع جديدة لم تكن مألوفة في العصر الجاهلي، إذ كان تعبيرا صادقا عن النفس، فإنّ شعرهم قد جاء مطبوعا

بهذا الطابع الروحي الجديد، فلا يكاد يخلو ديوان شاعر أمويّ من هذه السمّة، ناسكا كان أم مستهترا، بل إنّه لمن غير الممكن أن ينظم شاعر قصيدة، ليس فيها بعض من ملامح هذه الحياة الروحيّة الجديدة، سواء أكان هذا الأثر في لغة الشاعر، أو في معانيه، أو حتى في الألفاظ الإسلامية التي يستخدمها كي يؤثّر بها في قلوب من يحبّهم، فهذا عمر بن أبي ربيعة . وهو رائد الغزليين اللاهين . يوظّف بعض الألفاظ الإسلامية ليؤثّر بها في قلب حبيبته، يقول في إحدى قصائده [15]:

أَلاَ يَا مَنْ أُحِبُّ بِكُلِّ نَفْسِي وَمَنْ هُوَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ حَسْبِي!

وَمَنْ يَظْلِمْ، فَأَغْفِرَهُ جَمِيعًا وَمَنْ هُوَ لاَ يَهُمُّ بِغَفْرِ ذَنْبِي

ويقول مجنون بني عامر [16]:

أَرَانِي إِذَا صَلَّيْتُ، يَمَّمْتُ نَحْوَهَا بِوَجْهِي، وَإِنْ كَانَ الْمُصَلَّى وَرَائِيَا

أُصَلِّي، وَمَا أَدْرِي إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا أَثِنْتَيْنِ صَلَّيْتُ الضُّحَى أَمْ ثَمَانِيَا؟

وعلى هذا الأساس تطوّر الشعر الأموي تحت تأثير هذه الروح الجديدة التي طبعت نفوس الشعراء، وغيَّرت مَثلهم الأعلى في الفضائل والأخلاق حتى لتتحوّل . أحيانا. قطع من شعرهم إلى عظات وابتهالات دينية.

ويعدُّ الإسلام أقوى العوامل في ظهور هذا النوع من الغزل، فقد أوجد إدراكا جديدا للعاطفة، فيما دعا إليه من جهاد النفس ومقاومة للهوى، وفيما هيّأ لروح الزهد، بتهوينه من شأن الدنيا، وتهويله لعذاب الآخرة، وكانت مقاومة النفس للهوى أكبر ظاهرة تجلّى فيها زهد هؤلاء الغزليين في المتاع الحسّيّ، حتى كان بعضهم من الزُّهَّاد الأتقياء، ومنهم عبد الرحمن بن أبي عمّار الشهير بالقسِّ، وكان من أعبد أهل مكّة، تعلّق بفتاة تسمى سُلامة وكانت مغنّية، قالت له يوما: أحبّك؟ فقال: وأنا أيضا، والله أحبّك؟ ... قالت: وما يمنعك؟ فوالله إنّ المكان لخالٍ، فقال: إنّي سمعت الله تعالى يقول: "الأَخِلاَّءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ"[17]. وأنا أكره أن تكون خلّة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة[18].

ونحن إذا أنعمنا النظر في حياة هؤلاء البدو الذين سكنوا منطقة نجْد . وهي الأرض التي أخرجت فحول الغزل العذري . وجدناها حياة شظَف وحرمان، مثلما كانت على جاهليتها، إلاّ أنّ هذا الدين الجديد بروحيته أحدث سموّا في النفوس وسموّا في الشعر نفسه، فجاء عفيفا متساميا فيه نبل، وفيه حرمان، وفيه طهارة وارتفاع عن الحسِّ والمادّة، " ليس بالحضريّ الخالص، وليس بالبدويّ الخالص، ولكن فيه سذاجة بدوية، ورقّة إسلامية، وانصرف هؤلاء الناس . النجديين . إلى حياتهم الخاصّة، فاستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن، ولكنّها نغمة زهد وتصوّف" [19].

وعلى كلّ حال نما الغزل العذري وتطوّر في نجد وبوادي الحجاز، وهو غزل ينمّ عن نفس صافية صفّاها الإسلام، وأحال الحبّ إلى براءة وطهارة، فقد سما بالنفوس، فارتفع الغزل العذري في بعض جوانبه عن المادّة والحسّ، متذرّعا في ذلك بالإيمان ومحتميا بالعفّة "فالإسلام لم ينفخ في نار الحبّ ليطفئها، ولم ينفخ فيها كذلك ليوقدها؛ فتلك من شؤون النفس التي لم يواجهْها منفصلة عمّا حولها، ولم يعالجها منقطعة

عمّا وراءها وأمامها " [20] ، ولكن نظر إليها كلاًّ متكاملا، إذ زرع فيها ميولها وأهواءها، وفي الوقت نفسه، أقام هذا الحاجز الذي يحول بين طغيانها والمجتمع.

وإذن فإنّ الإسلام قد زواج بين عاطفة الحبِّ ونزعة العفّة اللتين اجتمعتا في نفس المسلم، فكان لابدّ لهذا المؤمن العِفّ الذي أخفق في حبِّه من أن يعبّر عن هذا الإخفاق، وأن يتحدّث عنه في هذه الصورة أو تلك، فوجد في الفنّ القوليّ سبيلا إلى التعبير عن مشاعره، فكان أن خلّف لنا هذا النتاج الرقيق الذي يمثّل المظهر الفنّيّ للعواطف المتعفِّفة الملتهبة في آن معا.

العوامل الاجتماعية:

إنّ أكثر ما يستوقفنا من أحوال المجتمع في هذا العصر، هذا الدفق من اللهو الذي انغمس فيه الناس، حتّى إنّه ليخيّل إلينا . ونحن نتصفّح كتاب الأغاني . أنّه لم يعد لهم من شاغل سوى سماع الأغاني . والجلوس إلى المغنّين، فقد ظهرت تحت تأثير الترف، وفراغ كثير من الشباب للهو، نظرية غناءٍ شارك فيها العرب والموالي، انتقل صداها إلى البلاط الملكيّ نفسِه، فأخذ حكّام بني أميّة يستوفدون المغنّين والمغنّيات ويجلسون إليهم، لهذا جاء شعر هذه الفترة غنائيا، معبِّرا عن أحوال وجدانية، يدور معظمه حول قصص الحبِّ، لأنّه موجّه أساسا إلى الغناء، وممّا زاد في اكتماله من الناحية الغنائية، وقد مثّل ذلك شعراء كثيرون كعمر بن أبي ربيعة، وابن قيس الرقيات ، والأحوص، والوليد، وغيرهم [21].

وقد جاء شعر هذه الفترة . غالبا . معبِّرا عن ذوق جديد، وحضارة جديدة في كلّ من الشام والحجاز، بأسلوب سهل متهافت قيل ليُغنّى في دُور اللهو والغناء.

أمّا في العراق فقد كان الناس يعيشون عيشة حروب وفتوح، إذ لم يتمّ للعرب اندماج تامٌّ، بل نزلوه مقسّمين قبائل، لكل قبيلة منازلها، فعادت الروح العصبية الجاهلية، واشتعل ما كان قد قضى عليه الإسلام من تناحر وتقاتل؛ فلم يكادوا يفرغون من "صفّين" و" الجمل" والحروب مع معاوية، حتى اشتعلت حرب كلامية أخذت شكل فخر وهجاء.

وقد برزت بوضوح في هذا العصر مظاهر الطبقية؛ إذ كان يعيش إلى جانب الطبقة العامّة من العرب، وطبقة الأرسطوقراطية، طبقة الموالي الذين كانوا . غالبا . أسرى للعرب في الحروب ومغانمها، لذلك كانوا يعاملونهم معاملة الأسياد لعبيدهم، فقد أقاموهم على خدمتهم في الزراعة والحرف المختلفة.

وأمّا في البادية؛ نجد وبعض ضواحي الحجاز الأخرى، فإن الناس كانوا يعيشون قبائل رحّلا يرعون الأغنام والأنعام، وينتقلون حول المراعي معتمدين على ما تهبه السماء لهم من مطر، يغزون المناطق المتحضّرة إذا ضاقت بهم صحراؤهم، ويقيمون أحيانا جنبا إلى جنب مع أصحاب هذه المناطق، يأخذون عليهم بعض الحِرف وطرق الزراعة، كما فعلت بعض قبائل ربيعة في العراق قبل الإسلام [22].

ولمّا جاء الإسلام حاول أن يقتل فيها هذه الروح فاستجابوا لهديه إلا بعضا منهم ظلّوا على ظلالهم الجاهلي، وعموما، احتفظ هؤلاء البدو بكثير من صفات بداوتهم، وقبعوا فقراء مُعدمين في صحرائهم، وبسبب المنافسة الشديدة التي نشأت بينهم وبين القحطانيين، وبعدهم عن التحضّر، رغم أنّه كان قريبا منهم،

ومنتشرا حولهم، واتخاذهم حطبا لتغذية نيران الفتوحات والجيوش العربية، وبسبب نفورهم من الولاية والحكم . فقد كان نصيبهم من الأدب والشعر ضئيلا، فلم يأت بالكثرة التي يمكن أن نتلمّس فيها صدى آلامهم وحرمانهم، بخلاف الغزل الحجازي الذي تجاوز . بما يحمله من شعور بالأنا . المواقف التوسُّلية والاستعطافية فكان له أن أطلق عنان شهوانيته، وتخلّص من إطاره التعفّفي، سواء عند العاشق أو المعشوقة، ومن ثمّة " فقد حرص على البقاء ضمن الإطار المتحرّر دون محاولة الخديعة، أو المراوغة، وذلك أن حسّهما الشهواني جزء من حبّهما ..." [23].

فالشاعر الحجازي المتحضر كان . إذن . متحررًا في حبِّه، يعبِّر عن حسِّه الشهواني بطلاقة [24]:

فَبِتُّ قَرِيرَ الْعَيْنِ أُعْطِيتُ حَاجَتِي أُقَبِّلُ فَاهَا فِي الخَلاءِ فَأُكْثِرُ

وليس هذا فحسب، وإنّما تشاطره المعشوقة مهمّته قسطا بقسط، بل تتولّى إخراجه من الحيِّ، وتحدّد هي المواعيد وأماكنها [25].

أَشَارَتْ بِأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمُ هُبُوبٌ وَلَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ عَزْوَرُ

أما الشاعر العذري فإنّ عواطفه متباكية، تعود إلى إحساس بالدونية، وشهوة لا تجرؤ على الاعتراف بنفسها، والمحبوبة معه . أبدا . قاسية، لا تبالي بعهوده المقطوعة في حين يظلّ هو مطأطئًا رأسه، راضيا بالقليل منها[26]:

وَإِنِّي لَأَرْضَى مِنْ بُثَيْنَةَ بِالَّذِي لَوَ ابْصَرَهُ الوَاشِي لَقَرَّتْ بَلاَبِلُهْ

بِلاَ، وَ بِأَلاَّ أَسْتَطِيعَ، وَبِالْمُنَى وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ الَّذِي خَابَ آمِلُهْ.

قانعا بما بسطت له، دون أن يتضمّر من مصيره المحزن، وذلك إنّما يعود إلى ما كان يعاني من العوائق الاجتماعية التي كانت تحول بين العاشقين والوصول إلى ما يبتغيان، وبسبب ما كانت عليه العلاقة بينهما من الصرامة، وكان يمنع منها لمجرد أنّه قال فيها شعرا، أو شاعت علاقةٌ ما بينهما . ولو كانت على شيء كثير من الطهر والعفّة، وكثير من المحبّين العذريين حيل بينهم وبين غاياتهم لهذه العلّة نفسِها، وكثيرا ما تربّص بالشاعر أهل الحبيبة، وحاولوا قتله، أو شكوه إلى الوالي فيهدر دمه.

وليس من الغرابة في شيء أن يتمنّى بعضهم . بسبب إحساسهم بوطأة المجتمع وصرامة التقاليد . أمنيات تركتهم سخرة بين الشعراء، وأضحوكة للنقاد، ومن هذه الأمنيات السخيفة، قول كُثيّرعزّة [27]:

أَلاَ لَيْتَنَا يَا عَزُّ! مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ بَعِيرَانِ نَرْعَى فِي الْخَلاَءِ وَنَعْزِبُ

كِلاَنَا بِهِ عُرٌّ، فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ عَلَى حُسْنِهَا، جَرْبَاءُ تَعْدُو وأَجْرَبُ

إِذَا مَا وَرَدْنَا مَنْهَلاً صَاحَ أَهْلُهُ عَلَيْنَا فَمَا نَنْفَكُّ نُرْمَى وَنُضْرَبُ

وَدِدْتُ وَبَيْتِ اللهِ أَنَّكِ بَكْرَةٌ هَجَانٌ، وَأَنِّي مُصْعَبٌ، ثُمَّ نَهْرَبُ

نَكُونُ بَعِيرَيْ ذِي غِنًى فَيُضِيعُنَا فَلاَ هُوَ يَرْعَانَا، وَلاَ نَحْنُ نُطْلَبُ

وهذه الأبيات رائعة ولاشك، إذ نظرنا إليها من ناحية تصويرها للخطر الاجتماعي المضروب على الشاعر ومحبوبته، إذ لم يجد له وسيلة يأمن بها على صاحبته . عزّة . أحسن من تمنّي كونهما بعيرين أجربين لدى رجل غنيّ؛ وبذلك يزهد الناس فيهما، ويتركونهما يأتيان مبتغاهما بعيرين أجربين مادام ذلك مستحيلا وهما إنسانان، فلا عجب إذن أن يأتي على بال الشاعر مثل هذا الخاطر الذي يصون له محبوبته من تقاليد المجتمع ومطارداته.

وليس كثيّر وحده الذي يشتكي من هذا الحظر الاجتماعي، وهذه الرقابة الشديدة التي أحيطت بها المرأة البدوية، وإنما هناك ذو الرُّمّة . أيضا . الذي يؤنّب نفسه على أنّه لا يزال يذكر ميّة رغم أنّ دونها حجابا وأبوابا[28]:

أَمَا أَنْتَ عَنْ ذِكْرَاكَ مَيَّةَ مُقْصِرًا وَلاَ أَنْتَ نَاسِي الْعَهْدِ مِنْهَا فَتَذْكُرُ

تَهِيمُ بِهَا مَا تَسْتَفِيقُ وَدُونَهَا حِجَابٌ وَأَبْوَابٌ . وَسِتْرٌ مُسَتَّرُ

وهذا الحجاب وهذه الأبواب نفسها يعانيها قيس بن ذُريح مع حبيبته لُبنى، إذا انسدل بينه وبينها هذا الحجاب الاجتماعي المنيع، فراح . لذلك . يبحث له عن عالمٍ آخرَ يناجي فيه حبيبته دون أن يكدّر مناجاتهما مخلوق، عالمٍ خياليٍّ يتنسّم فيه الجو الذي يجمعه ولبنى، ويتأمّلان لحظة الأصيل بحرية مطلقة[29]:

فَإِنْ تَكُ لُبْنَى قَدْ أَتَى دُونَ قُرْبِهَا حِجَابٌ مَنِيــعٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

فَإِنَّ نَسِيمَ الْجَـوِّ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَنَنْظُرُ قَرْنَ الْشَّمْسِ حِينَ تَزُولُ

وقد اتّفقت أسباب شتّى على ترسيخ هذا العرف في البادية العذرية، والعامرية، وما جاورهما، إذ هي قبائل بادية تعتزّ بالمنَعة والصيانة، وترفض الشبهة –أيّةَ شبهةٍ–، في بناتها ومحارمها، وتحافظ على هذه السمعة محافظتها على بقائها، وتأبى أن ترمى فيها وإلاّ دِيسَ حماها، وبطُلت حراستها، وتخطّاها من يعتمد عليها، فليس . لذلك . بمباحٍ لديها اتّصال المرأة بالرجل "وليست إباحة ذلك . اتصال المرأة بغير زوجها . فعلا بمانعتها أن تنكرها، وتبرأ منها في حياتها الاجتماعية، وبحسب أن المنَعَة في العشق، أو الاستعصام في العلاقات بين الرجال والنساء مصلحة طبيعية نفعية"[30].

وظاهرة المنَعَة في العشق وحظْره في العرف الاجتماعي ليست جديدة على الغزل العذري، فقبل ذي الرمّة وكُثيّر شكا عُروة بن حِزام هذه القيود الاجتماعية نفسَها فتمنّى لنفسه ولمحبوبته الأمنيةَ نفسَها التي تمنّاها كثيّر[31]:

أَيَا لَيْتَ أَنَّا الْدَّهْرَ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ بَعِيرَانِ نَرْعَى الْقَفْرَ مُؤْتَلِفَانِ

إِذَا مَا وَرَدْنَا مَنْهَلاً صَاحَ أَهْلُهُ وَقَالُوا: بَعِيرَا عُرَّةٍ جَرِبَانِ

ويبدو مجنون ليلى وكأنّه يتساءل في حسرة: أليس من البلوى والجنون واللاعقلانية أن يمنعني هذا المجتمع بقيمه الجائرة،وتقاليده البالية من حبيبة قلبي ليلى التي لا صبر لي عنها ولا صبر لها عنّي؟! بل

إنّه ليُدين ويتّهم هذا المجتمع بالعقم العقلي، والبعد عن أيّ منطق: إذْ بدلا من يُزوَّج بها هو الذي أحبّها وأفنى في سبيلها عمره، يزوّجونها من كلب ليس بكفء لها [32]:

أَلَيْسَ مِنَ الْبَلْوَى الَّتِي لاَ شِوَى لَهَا بِأَنْ زُوِّجَتْ كَلْبًا وَمَا بُذِلَتْ لِيَا؟!

والظاهرة العذرية إن هي . في بعض جوانبها . إلا انعكاس لمحاولة شكْم العشق في حركة التاريخ أثناء العصر الأموي؛ وذلك ابتغاء استنفار الطاقات الفردية لاستثمارها في التوسّع الإمبراطوري العربي، أملا في إقامة الدولة العظمى التي تحافظ على روح العالم حيّة، مهمِلةً في ذلك أرواح الأفراد، والثمن الذي يدفعونه مقابل تنفيذ طلباتها التوسّعية، فخلّفت لديهم كمّية هائلة من الوجع العشقي، والكبت الذي ساهموا به في بنائها . عن كره . لأنهم إلاّ يتنازلوا . في نظرها . عن هذه الكمّية من الوجع العشقي تَنْحَنِ بهم حركة التاريخ من البناء الحضاري إلى الهدم الحضاري عن طريق طغيان العواطف، إذ العشق " يعدّ من النوع الذي يعيش فيه العقل . وسيلةُ البناء الحضاري . في إسار القلب –وسيلةِ الهدم . " [33]. والحضارات إنّما تستلزم العقل لا القلب الذي يتعارض . من حيث هو نزوع إلى السكينة . مع تربية الفارس العربي الذي يصون الإمبراطوريات، ويحفظ الحضارات من الضياع والتفسُّخ [34].

ولكي نفهم سرّ حظر العشق، ومحاولة محوه من الحياة الاجتماعية ابتغاء استنفار طاقات الأفراد في البناء الحضاري . فإنّه حريّ بنا أن نعرف طبيعته فما هو إذن هذا العشق؟

جاء في مأدبة أفلاطون أن الإنسان كان على قدر عظيم من القوة، فتطاول على الآلهة، وتحدّاهم، فضاقوا به، فتداولوا فيما بينهم، وارتأوا أن يجزّئوه إلى جزأين، كلّ منهما يمشي على رجلين، وعهدوا بتنفيذ ذلك إلى " زيوس" ففعل، وطلب من (أبّولو) أن يدير كلّ نصف إلى قسيمه حتى يرى عمل (المدية) في صاحبه، فيكون أكثر طاعة، ثم شفاههما، وبعد هذا صار كلّ منهما يحنّ إلى حاله الأولى، ويبحث عن نصفه، ويشتاق إليه، فإذا وجده ضمَّهُ إليه، وطوّقه بذراعيه، وعانقه فنسيا في عناقهما وذهولهما النشاط الخارجي حتى كادا يموتان جوعا [35].

ولا يذهب ابن حزم الأندلسي بعيدا عن أفلاطون حين يرى أن العشق هو" اتّصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصلها الرفيع".ويعرِّفه ابن قيم الجوزية في كتابه " ذمّ الهوى" بأنّه عطالة عن أحوال التمييز [36]

خاتمة :

وخلاصة القول أنَّ هذه الآراء كلَّها تُجمع على أنّ العشق هو عطالة وخمول عن النشاط الخارجي؛ إذ المعشوقات في رأي أفلاطون، في حالة ذهول عن العالم الخارجي، يكاد عناقهما ينسيهما الأكل والشرب. أما عند ابن قيّم الجوزية، فإنّهما عاطلان عن أحوال التمييز، لذلك فإن العشق " كسل على المستوى الخارجي، وتفجير فوّار على المستوى الداخلي، الشيء الذي لا يخدم الأغراض الكبرى للتاريخ" [37].

وعلى هذا الأساس، فإنّه لم يعد غريبا أن يمنع الأفراد من العشق لأنه نقيض العمل من حيث هو بلادة متناهية على مستوى النشاط والفعل في الواقع الخارجي.

الهوامش:

([1])- الغزل العذري ـ يوسف اليوسف ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر1981 ص13 .

([*]) – (مرج راهط) هي معركة دارت بين مروان بن الحكم - الذي بايعه أهل الشام - والضحاك بن قيس - الذي بايعه أهل دمشق وكان يَدعو لبيعة ابن الزبير سراً - على أرض "مرج راهط"، وقد استغرقت المعركة 20 يوماً وانتهت بنصر مروان بن الحكم [في عام 64 هـ (683م). كان لهذه المعركة دورٌ هام في استتباب أمور الدولة الأموية لمروان بن الحكم والقضاء على خصمه عبد الله بن الزبير، وذلك ليُصبح لاحقاً الخليفة. ينظر بهذا الخصوص كتاب: (موسوعة الحروب. هيثم هلال، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط2، 2008 ص179.)

([2])- التطور والتجديد في الشعور الأموي، شوقي ضيف، ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط7، 1981 ، ص 86

([3]) - الحجرات ـ الآية 8

([4])- التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص87

([5])- المرجع نفسه، ص 88

([6])- المرجع نفسه، ص92

([7])- الغزل العذري، يوسف اليوسف ـ ص32

([8])- المرجع نفسه ، ص 30

([9])- المرجع نفسه، ص26

([10])- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، شكري فيصل، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط6، 1982، ص 283 .

([11])- الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، إحسان سركيس، دار الطليعة، بيروت 1981، ص418 .

([12])- الغزل العذري، يوسف اليوسف ، ص26 .

([13])- التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، ص57 .

([14])- المرجع نفسه، ص58.

([15])- ديوان عمر بن أبي ربيعة- دار بيروت 1987 ـ ص71 .

([16])- دراسات الحب في الشعر العربي ـ مصطفى عبد الواحد ـ ج:2- دار المعارف ـ مصر 1972 ص360 .

([17])- الزخرف ـ الآية 67

([18])- النقد الأدبي الحديث، محمد عنيمي هلال، ـ بيروت، ط1، 1982 ـ ص 189

([19])- من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت 1978م ، ص 497.

([20])- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، شكري فيصل، ص 285

([21])- التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 102 .

([22])- المرجع نفسه، ص 31 .

([23])- الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، إحسان سركيس، ص418 .

([24])- ديوان عمر بن أبي ربيعة- ص 124 .

([25])- المصدر نفسه.

([26])- ديوان جميل - دار بيروت 1982 - ص88.

([27])- تراجم وسير- عباس محمود العقاد، ج:3 - دار الكتاب اللبناني - بيروت 1981 ،ص 287.

([28])- الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - ج:17،ص 328 .

([29])- دراسات الحب في الشعر العربي، مصطفى عبد الواحد - ص 371 .

([30])- تراجم وسير، العقاد - ج:3، ص275.

([31])- المرجع نفسه، ص 287 .

([32])- الغزل العذري - يوسف اليوسف - ص 81.

([33])- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، شكري فيصل، ص 288.

([34])- الغزل العذري، يوسف اليوسف ، ص11.

([35])- الغزل في العصر الجاهلي - أحمد محمد الحوفي - دار القلم - بيروت (د.ت)، ص129 .

([36])- المرجع نفسه، ص 128 .

([37])- العصر الإسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط10، (د.ت) - ص 149 .